دعوة لإحياء مكتبة رمسيس الثانى الأكبر

بقلم

رئيس التحرير

قبل مكتبة آشور بأنيبال (٦٦٨ ـ ٦٢٨ ق.م.) فى العراق القديم؛ وقبل مكتبة الإسكندرية القديمة (القرن الثالث ق.م.) فى مصر اليونانية توفر رمسيس الثانى الملقب بالأكبر على إنشاء أضخم وأعظم مكتبة فى العصور القديمة، حيث قامت نحو سنة ١٣٠٠ ق.م؛ وضمت كل أو جل الإنتاج الفكرى الذى أبدعته مصر والدول الموجودة فى المنطقة، والتى بلغت مجلداتها حسب تقديرات إيامبليكوس السريانى إلى ما يزيد على عشرين ألف لفافة، وكانت فى وقتها أضخم مكتبات ذلك العصر. وقد حذا آشور بأنيبال الآشورى والإسكندر الأكبر المقدونى حذو رمسيس الثانى فى إنشاء أو التخطيط لإنشاء مكتبتيهما.

لقد أنشئت هذه المكتبة العظيمة فى المعبد الذى أقامه رمسيس الثانى تخليداً لذكرى انتصاره على الحيثيين فى معركة قادش. وقد وصف المعبد والمكتبة والمدرسة فى العديد من المصادر القديمة من بينها ملحمة شاعر البلاط «بنتاؤور»، والمرسوم الملكى الذى نقش على جدران النصب التذكارى، ومن بينها أيضا كتاب المؤرخ والجغرافى اليونانى هيكاتيوس ميلتوس وكتاب سترابو وكتاب ديوردورس الصقلى. ومنها كتاب إيا مبليكوس السريانى الذى وضعه سنة ٣٢٥م تحت عنوان «الأسرار المصرية».

لقد وصلنا مبنى المكتبة والمعبد وإن أصيبا بالتهدم والتلف، وإن لم يصلنا أى من مقتنيات المكتبة. وقد وصف جان فرانسوا شامبليون بعد قراءته الناجحة لحجر رشيد مبنى المعبد والمكتبة بعد زيارته لمصر عام ١٨٢٩م، وصفاً دقيقا مفصلاً وصور لنا المكتبة خير تصوير. كذلك قام كل من إميليا إدوارز وجورج إيبرز فى مذكراتهما الممتعة عن سياحتهما إلى طيبة مدينة المائة بوابة نحاسية بوصف المعبد والمكتبة وصفا لم يبعد عن وصف شامبليون.

لا نعرف على وجه اليقين مصير مقتنيات مكتبة رمسيس الثانى، وإن كانت هناك نظريتان تفسران عدم وجود تلك المقتنيات تقول إحداهما: بأن اليهود عندما خرجوا من مصر سواء كان رمسيس الثانى هو فرعون الخروج أو مرنبتاح، فقد حملوا معهم كتب هذه المكتبة كلها أو جلها ووضعوها فى تابوت أطلق عليه اسم تابوت الحكمة نظرا لما يحمله من كتب، ودفنوه فى مكان ما من سيناء التى استقروا بها ردحاً طويلا من الزمن بعد الخروج. وعندما احتل اليهود سيناء ١٩٥٦، ١٩٦٧ ظلوا يبحثون عن تابوت الحكمة هذا دون جدوى. أما النظرية الثانية فتقول بأن هذه المكتبة استمرت فى الوجود حتى غزو الإسكندر الأكبر لمصر، وقد استولى على ما بها من كتب وأمر بترجمتها إلى اليونانية وأحرق الأصول على نحو ما قام به من أفعال إزاء كثير من مكتبات الدول التى فتحها وخاصة بلاد الفرس.

ومهما يكن من أمر مصير هذه المكتبة ومقتنياتها فليس هناك خلاف حول وجود هذه المكتبة وعلى عظم مقتنياتها التى رغم عدم وصولها إلينا فقد نجحنا فى إعادة تركيبها من واقع حركة الإنتاج الفكرى قبل وإبان وبعد قيام هذه المكتبة والتى كانت أعظم مكتبة أكاديمية فى عصرها.

وإذا كنا اليوم نحيى مكتبة الإسكندرية التى قامت بعد مكتبة رمسيس الثانى بألفية كاملة فإننا من هذا المنبر نطالب بإحياء مكتبة رمسيس الثانى فى نفس المكان الذى قامت فيه غربى مدينة الأقصر، وإن كنا لم نعثر على وجه اليقين على المكان القديم لمكتبة الإسكندرية، فإننا نعرف يقينا مكان مكتبة رمسيس الأكبر وما تزال أطلالها باقية إلى اليوم تدل على المكان والزمان والمحتوى والهدف بما تحمله هذه الأطلال من كتابات ونقوش وتصاوير وشعار «هنا مكان علاج النفوس» ، وإذا كانت دار الكتب المصرية هى المكتبة الوطنية لكل مصر؛ وإن كنا نقترح أن تكون مكتبة الإسكندرية الجديدة مكتبة وطنية لشمال مصر، فلتكن مكتبة رمسيس الثانى مكتبة وطنية لصعيد مصر، ذلك الصعيد الذى خرجت منه أولى مواد الكتابة وأدواتها، وأولى المكتبات، وأول أمين مكتبة فى التاريخ (تحوت)، وأول أمينة مكتبة فى التاريخ (حاتحور).

اللهم إنى قد بلغت اللهم فاشهد

رئيس التحرير

أ.د. شعبان عبد العزيز خليفة

❄ ❄ ❄